الأبعاد التاريخية للعمران البشري بإقليم وادي سوف في الجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد العثماني (1519–1830)

The Historical Dimensions of Human Habitation in the Oued Souf Region of Southeastern Algeria During the Ottoman Era (1519– 1830)

أ.د. علي غنابزية*

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

ghenabzia-ali@univ-eloued.dz

مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

تاريخ الاستلام: 2024/10/10 تاريخ القبول 2024/11/11 تاريخ النشر 2024/12/17

الملخص:

يدرس هذا المقال، كيف تطورت مدينة الوادي في إقليم وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد العثماني. وتمت الإشارة إلى أهم الأبعاد التي ساعدت على إعطاء المدينة شخصيتها وصفتها التاريخية، وتمثلت في البعد التاريخي والطبيعي، والديموغرافي والاقتصادي. وعندما استقر حال المدينة، عرفت عدة مؤسسات بسيطة ولكنها ضرورية، ومنها المساكن والدور التي يحيط بها سور لتأمينها من عمليات الغزو. وبعض المؤسسات الاقتصادية، ومنها السوق الرئيسي، وبساتين النخيل التي حققت الاكتفاء الذاتي، إضافة إلى المؤسسات الدينية من مساجد وزوايا العلم والقرآن.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: البعد التاريخي، إقليم وادي سوف، العمران البشري، المنشآت الدينية، بساتين النخيل.

Abstract:
This paper discusses the development of El-Oued city in the Oued Souf region of southeastern Algeria during the Ottoman era. It highlights the significant dimensions that contributed to the city's formation, including historical, natural, demographic, and economic factors. Once the city had stabilized, several essential institutions were established, such as buildings and houses that were enclosed by a wall to protect them from invasions, economic institutions, including the main market, and palm groves that achieved autarky. Additionally, religious institutions were established, such as mosques and zawiyas of Quran.
key words: : historical dimension, Oued Souf region, Human habitation, religious institutions, palm groves.

مقدّمة:

تعتبر الجزائر بمثابة قارة، مترامية الأطراف، متنوعة المواطن والأقاليم، والغنية بعناصرها السكانية الفاعلة ولاسيما في أقاصي المناطق النائية عن الأنظار، كالمناطق الجبلية الوعرة الوصول، والصحراوية الموغلة داخل الرمال. ويكتسي التاريخ المحلي لتلك المواقع أهميته في تاريخ الوطن عموما، ولكن التحدي الذي يواجه الباحث عند كتابته في هذا المجال، هو قلة الدراسات المؤسسة لتلك الفترات ولاسيما التاريخ الحديث، والعزوف الواضح عن الكتابة ماضيا وحاضرا، وتناثر الوثائق والمصادر. وكل ما سبق يضطر الباحث أن يكون حاضرا محليا، عارفا بأساسيات المناطق التي يكتب عنها، مع توفر الرغبة في إضافة الجديد.

الإشكالية: لقد كتبت دراسات وأعدت أبحاث تاريخية حول العمران البشري في مناطق الجزائر الشمالية خلال العهد العثماني، بينما بقيت مناطق الجنوب ولاسيما صحراء قسنطينة – التابعة لبايلك الشرق الجزائري ومنها مدن وقرى وادي سوف– في حاجة ماسة إلى دراسات تكشف حالة الصحراء وتطور عمرانها، وتوسع بنيانها.

والإشكالية هي عدم وضوح الصورة، وقلة مصادر المعلومات التاريخية؛ ولكن البحث الأولي يكشف ملامح العمران، ويرصد أهم الأبعاد التاريخية الضابطة، ورسوخ معالمها في كامل الإقليم؟

والجدير بالذكر أن الفترة العثمانية في منطقة وادي سوف – وبغض النظر عن مدى تأثير العنصر التركي – تعتبر مرحلة تاريخية تشكلت فيها المنطقة وتوسعت عمرانيا وسكانيا، واختارت خطها الاقتصادي الأخير. وهي فترة بدأ المجتمع ينتقل من العهد الحفصي الذي عرفت المنطقة انغلاقا في ظل الساكنة الإباضية الزناتية، إلى عهد جديد عرف قدوم القبائل العربية، واستقرارها النهائي، وتمكنها من ابتكار غراسة النخيل، والتي مثلت بعداً هاما في تثبيت أقدام الوافدين، وإبداعهم في الزراعة، وتحت ظلال النخيل، والتي رفعت مكانة المنطقة، وجعلتها مقصداً وملاذاً لكل راغب في الاستقرار والأمان.

منهج الدراسة: وتركز منهج معالجة الإشكالية، في عرض الوقائع وسردها، والتحقيق في جذورها، وربطها بالخط العام في المنطقة المجاورة، ورسم صورة جلية للتطور التاريخي للعمران البشري ساكنة وعمارة.

الفرضيات المتوفرة: وهي البحث عن مصدر اقتصادي جديد، وهو الذي ثبت الدعائم الاجتماعية، ووفر الاستقرار، وانتعشت الحياة العامة، وصارت منطقة سوف عامل جذب للسكان، لتوفر غراسة النخيل الفتية والجديدة على هذا الإقليم الصحراوي، رغم محاذاته لعدد من الأقاليم التي سبقته في إنتاج التمور.

أهداف الدراسة: تعددت الأهداف حول الأبعاد التاريخية للتطور العمراني في المنطقة:

–تشخيص الحياة البسيطة، ومحدودية النشاط الاقتصادي في المنطقة في القرون الماضية، التي عاشت خلالها في خمول، والاكتفاء بحياة البداوة والاعتماد الكلي على الرعي كطريقة في توفير سبل العيش.

–التأكيد على دور القبائل العربية الوافدة، وتطويرها لمجالات العمل، وبثها الحيوية والنشاط، مما جعل المنطقة مشجعة على الهجرة والتواصل مع الخارج.

–الكشف عن كيفية الانتقال من مرحلة البداوة إلى المجتمع الحضري في ظل الحكم العثماني الذي تمركز في الشمال، وأهمية الاحتكاك بالمناطق المجاورة.

وحول تلك الإشكالية يتمحور هذا الموضوع الذي نقدم من خلاله أهم الأبعاد التاريخية للمجتمع في منطقة وادي سوف، والمؤسسات القاعدية، وكيف تمكنت العناصر الوافدة من إعطاء الوجه الجديد للمجتمع في تاريخ الجزائر الحديث.

أولا: الأبعاد التاريخية للعمران البشري بإقليم وادي سوف:

كانت وادي سوف – خلال عصور الدول المتعاقبة على بلاد المغرب الأوسط – أرضا يغلب عليها حياة البداوة في أعماق الصحراء، وقلما يرتادها المهاجرون، ويتحاشى الخوض في صحرائها المسافرون، إلا من أراد الاحتماء بها، والانزواء بين رمالها، حتى يسلم له البدن، وتستريح له النفس، وهذا الذي جعل العناصر الإباضية من قبيلة زناتة البربرية تستقر منذ زمن غابر. وهناك أبعاد عدة تشكلت فيها وادي سوف الحديثة، وأهمها:

1)البعد التاريخي:

يعتبر البربر سكان المغرب الإسلامي الأوائل، ولاسيما قبيلة زناتة التي عمرت جنوب الصحراء، وهذا ما أكده ابن خلدون: " ... ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس وبقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد وأذعنوا لحكمهم والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة..." (1)

وغلب على قبيلة زناتة طابع البداوة، والرحلة والتنقل في أعماق الصحراء، والسكن في الخيام وامتلاك الإبل. وقد تشكلوا في قبائل، يحكم كل قبيلة شيخ، وبعضا منهم يستقرون لبعض الوقت ويجمعون في أنماط معيشتهم بين الزراعة والرعي في آن واحد. (2)

واستقر الزناتيون بشكل بارز في وادي سوف في حدود العهد الصنهاجي، وشيدوا عدة أماكن بوادي سوف، وتكسبت القديمة والجردانية، والبليدة، وتاكرارت.(3) واستمرت القبيلة تعيش منعزلة، ولكنها متصلة ببني جنسها من الإباضيين في الخط المتواصل من جبل نفوسة، مرورا بدرجين في المغرب الأدنى، ويمتد حبل الوصال إلى الغرب في إقليم وادي أسوف، ووادي أريغ، وورجلان، وبلاد ميزاب. ولم يمنع ذلك "وادي أسوف" أن تصير حينئذ حاضرة علمية، يقصدها العلماء الأجلاء، وزخرت كتب سير الأعلام الإباضية بأخبارهم وأشادت بمآثرهم،(4) واستمر هذا الوجود الإباضي في وادي أسوف إلى أواخر العهد الحفصي.

2) البعد الطبيعي:

يستقر الإنسان عادة في الأماكن التي تتوفر على أساسيات العيش ولاسيما الماء، وكانت الصحراء زاخرة بوديان وأنهار، استقر حولها الإنسان، وبرزت منذ العهد الرستمي، وكان لها أثرها في ازدهار العمران بالمغرب الأوسط. (5) وساهمت كلها في الازدهار الاقتصادي وحياة الاستقرار في ظل الزراعة، وكانت مصدر رخاء للسكان. (6)

وكان "وادي أسوف" وهو النهر الرقراق، مصدر زناتة من الماء، وبجواره تمتد المراعي الخصبة، إضافة إلى ما يستورده القوم من قمح أو شعير، أو تمور، من المناطق المجاورة، ومن ذلك حققت الاكتفاء الذاتي، في ظل الأمن والاستقرار، بعيدا عن مراقبة السلطة، أو المخالفين لهم في المذهب. ولكن هذا النهر بدأ ينضب ماؤه، وحينها بدأت المنطقة تعاني من الجفاف.(7) ويومئذ قدم العرب وسكنوا بجوار زناتة، مما جعل الصراع يحتدم، وانتهى بخروج زناتة الإباضية نهائيا من وادي سوف.

3)البعد الديموغرافي:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، هجرة واسعة من القبائل الهلالية، في عهد الدولة الصنهاجية، وتوزعت بطونهم وعمائرهم في المدن والقرى، ولاسيما في عهد الناصر الموحدي خلال فترة حكمه بين596-602هـ.

ودفعت ـ الظروف الاجتماعية القاسية ـ تلك القبائل العربية إلى البحث عن مواطن أكثر ملاءمة، وانطبق ذلك على قبيلة عدوان التي كانت ضمن قبائل هلال وسليم بنواحي الكاف والقيروان، وقد ازدادت أعدادهم، وتزاحموا على المراعي التي ضاقت بهم، فخرجوا إلى الأطراف، فوجدوا أرض الجردانية في شمال وادي سوف، ذات المراعي المناسبة، ولكن سكانها من بربر زناتة رفضوا إقامتهم، وبعد صراع دموي رجحت كفة قبيلة عدوان،[8]وتشتت سكان الجردانية في الآفاق، وكان ذلك في حدود 600هـ/1204م،[9] ويومئذ فتح باب الهجرة العربية نحو وادي سوف، وتتابع المهاجرون أفرادا وجماعات،[10] من بلاد قسطيلية والزاب ووادي ريغ،[11] ومن أهم الوافدين قبيلة طرود العربية،[12]والتي استقرت أولا في شمال سوف في حدود 690هـ/1292م، وكانوا يتنقلون، واشتد التنافس مع بني عمومتهم من قبيلة عدوان، وأسبابه متعددة، وهي الصراع على مصادر المياه، والمراعي الخصبة، والمواقع الواسعة، مما جعل طرود تفضل مغادرة المكان، وفضلوا الانسحاب إلى الجنوب نحو مدينة الوادي، وسكنوا قرب تكسبت القديمة. في حدود 800هـ/1398م، وانتشرت خيامهم كالقطع المتناثرة، وكانوا يتنقلون بسرعة من الوادي إلى الأطراف القريبة. [13]

وكان لدخول العرب لوادي سوف، – منذ القرن الخامس الهجري– أهميته التاريخية، فقد أحدث تحولا في الاقتصاد والثقافة والعمران، بل في العلاقات الاجتماعية، التي طبعت المنطقة بروح جديدة، وكلها مكنت سكان الإقليم من الاستقرار.

4)البعد الاقتصادي:

عند دخول العرب من قبيلة طرود إلى مدينة الوادي، اجتهدوا في البحث عن أساس متين، يثبت عمرانهم، ويشجع على الإقامة الدائمة والاستقرار الآمن، وانصب التفكير ـ بجدية وعزم ـ في زراعة النخيل، والاستجابة للدعوة المتكررة من الرجل الصالح سيدي مستور،[14]ولكن الانطلاقة الحقيقية عرفتها المنطقة، بداية 1540م عندما عزم أبناء سيدي مستور على زراعة النخيل، بحثوا عن أخفض مكان بالقرب من خيامهم، وعثروا على بغيتهم في الجنوب من مسكنهم البدائي؛ لأن الرياح حفرت في أعماق الرمال، فظهر الثرى، فزرعوا الفسائل الأولى، في أول غوط[15]في سوف، وكللت تجربتهم بالنجاح، وتسارعت طرود إلى اقتفاء أثرهم، وانجاز مزارع في أطراف المدينة الفتية، التي صارت خضراء في خط ممتد ما بين غربها وشرقها، وتعددت "الجرور"[16] المحاذية للمدينة، بعد مرور قرن على ذلك، وشكلت ظاهرة ملفتة للانتباه عند الغريب العابر، وأشار إلى ذلك، الرحالة المغربي العياشي سنة 1072هـ/1662م قال: (وجدت سوف خطاً من نخيل مستعرضاً في وسط الرمل به بلاد عديدة...). [17]

ثانيا: تأسيس مدينة الوادي قاعدة وادي سوف الأساسية:

وبعد ذكر تلك الأبعاد، عرفت وادي سوف التحول الجديد، الذي صنعته العناصر العربية، وخصوصا من بني هلال وسليم، وأخيراً قبيلتي عدوان وطرود، والتي تشكلت منهما المنطقة، ومع زراعة النخيل، أخذ المجتمع صفاته الجديدة. وكان العهد العثماني، فترة بروز وادي سوف، وخصوصا قاعدته، "تكسبت القديمة"، والتي تحولت إلى مدينة "الوادي"، بمنشآتها الأساسية.

1)المنشآت العمرانية:

بدأ المجتمع يتطور، وتوسعت الحركة العمرانية، ببناء المساكن، وكانت الطبيعة المحيطة، والبيئة الجديدة، هي أساس العمران، وسوف نذكر مساكن المدينة وسورها الآمن:

أ) مساكن مدينة الوادي:

عندما توسعت زراعة النخيل، ومرت الأيام على أهل البلاد، شرعوا في استغلال الغوط، ونخيله في العمران، بل من حواف – الغوط أو الهود[18]ـ برز شكل العمارة الأولى وتمثلت في العناصر التالية:

– مساكن البدو الرحل: وكانوا يسكنون في "الخيمة" أو "بيت الشعر "، وبسبب حرارتها في فصل الصيف، أو ضيقها يشيدون بالقرب منها كوخا يأوون إليه عند اشتداد الحرارة، وينجز من الأغصان الكبيرة لشجر الصحراء. ولكل قبيلة خيمتها المميزة بالألوان والأشكال الهندسية الخاصة بها. [19]

المساكن الريفية(مساكن في اطراف الغيطان): وهي مساكن متنوعة أقيمت داخل البساتين أو في أطرافها، ويأوي إليها البدو والحضر، ويستعملونها بصفة مؤقتة في أغلب الأحيان في فصل جني التمور خريفا.

– التجمعات السكانية (الحوش) :كانت مدينة الوادي تتكون من مساكن ذات أبواب صغيرة، تبرز من فوق أسقفها بعض أغصان النخيل، وتتجمع هذه المساكن حول المسجد، وعلى أطرافه تنتشر وتتوسع البلدة أو "النزلة" مع وجود البئر في وسط "الرحبة"، التي تتصل بالشوارع الحلزونية التي تغطيها الرمال كلية. [20]ولم يمنع هذا التجمع العمراني من وجود " زرايب"[21] أو " خيام " تسكن بها العائلات الفقيرة في ضواحي مدينة الوادي. [22]وساهمت زراعة النخيل في إمداد البناء وتدعيمه بأجزاء النخلة التي صارت عنصرا هاما من العمران، ونذكر منها:

–جريد النخيل، وتشيد به "الزريبة " في بعض المنازل وتخصص للحيوانات. [23]أو في المساكن والغيطان، ويأوي اليها في القيلولة، بل تتخذها العائلات الفقيرة مسكنا أساسيا. وتقام الأسوار حول المساكن بالزرب الذي يحيط بها، ويحميها من الحيوانات والأطفال، ويستر أصحاب البيت في الحوش الداخلي، واستبدل فيما بعد بالحائط من الجبس. أما

جذع النخلة: عندما تهرم النخلة، يقطعها صاحبها، ويستغل جذعها في تسقيف المباني، وباقي الأجزاء تستعمل لحرق حجارة الجبس التي تمثل أساس مادة البناء. (24)

كما وفرت الغيطان، مختلف مواد البناء الضرورية، لأن المنطقة كانت تعاني – قبل زراعة النخيل – من قلة المواد الضرورية للبناء، والتي تجلب من أطراف مدينة الوادي، ولما شرع في حفر النخيل، ظهرت الحجارة، واستعملت في الإنجاز. وكانت الحجارة المستعملة، متعددة الأشكال، ومنها : اللوس، والتتافزة وهذه الأخيرة هي المادة الأساسية لصناعة الجبس في الغيطان. ولما كبرت المدينة، اضطر سكانها إلى تشييد سور يحميها من الأخطار.

ب) سور مدينة الوادي: وعندما انفردت طرود بالمدينة، تطور موقعها، وتوسع عمرانها في حدود قرن من الزمان، وكانت سنة 1540م، بداية التوسع في زراعة النخيل، وحفر الغيطان، في غضون 95 سنة، كانت كافية لتحويل المدينة – التي أخذت اسم مدينة الوادي – إلى مجمع سكاني يحيط به سور تم تشييده في سنة 1635م، وفي أطرافه الخارجية تتناثر الغيطان في مختلف الاتجاهات، ولم تكن المدينة منتظمة البناء، وأكثر مساكنها زرائب من جريد النخيل مع الحلفاء القائمة على ركائز من خشب الأزال أو خشب النخيل، والمنازل بها زروب وزرائب أو خيام من الشعر أو الوبر، والسبب هو قلة الحجارة (25)،وحالة الفقر الذي جعلهم يقيمون مأوى يقيهم الحر والبرد فقط، وأعطوا كل وقتهم لزراعة النخيل التي كانت عاملا مثبتا لعمرانهم، ومشجعا على دوام استقرارهم.

وكانت الظروف السياسية أهم الأسباب الدافعة لبناء السور، فعندما أعانت طرود عرفة الشابي لم يرضوا بقيمة الغنائم، وعزموا على عدم نصرة الشابية مرة أخرى، وذلك جعل الباي التونسي يغتنم سوء العلاقة، ويوطد علاقته بأهل سوف، عن طريق الهدايا، وذلك جعلهم يساندونه في معركته مع عبد الصمد الشابي(26)حينما كان يحاول استرجاع ملكه

الضائع في حدود 1632م، ولكن إعانة أهل سوف رجح الكفة لصالح الباي حمودة باشا فانتصر على الشابية. [27]وهذا أثار الخوف عند أهل سوف من غزو الشابية.

كما أن رجوع طرود من الحرب مع عبد الصمد الشابي، وقد تكبدوا خسائر فادحة، بموت عدد من رجالهم، وسمعت بهم القبائل القريبة ولاسيما من بني سليم بالجبل في شمال سوف، ففكروا في اغتنام ضعفهم، بالإغارة عليهم، وذلك نكاية وتشفيا وانتقاما، لأن طرود سبق لها تشريد تلك القبائل من سوف في الزمن البعيد، وبلغ الأمر لسكان الوادي، وحتى يحصنوا مدينتهم، عزموا على بناء السور، وجمعوا مواد البناء من حجر وجبس، وتم البناء في مدة عامين (1634-1635م). [28]

والسور كان يضم حي أولاد أحمد وحي لعشاش، وبه أربعة أبواب تمثل الجهات الرئيسية الأربع، ويمر السور غرب غوط السردوك، وهو الغوط الشرقي لحي الاعشاش، والذي يسند السوق الرئيسي للوادي، وما زالت معالم الغوط واضحة إلى يومنا هذا.

وكانت المدينة على تلك الحال من الأمان، إلا أن الرياح العاتية، والعواصف الهوجاء، فعلت فعلها تحت جدران السور وأساساته، فلم يصمد أمام الأحوال الطبيعية، وبدأ يتهدم، وتنهار أجزاء منه ولاسيما في ناحيته الغربية، فالأرض فضاء واسع بدون حواجز ولا غيطان، ولم يدم سوى عشرين سنة فقط، كما أن السكان استغلوا تلك الوضعية، ونهبوا حجارته واستعملوها في بناء وترميم بيوتهم فوجدوها بالقرب منهم،[29] وهي تعوض حجر اللوس والتافزة، ولم يكن عندهم الإحساس في المحافظة على هذا المعلم التاريخي.[30] وصارت البلاد – بعد تهدم السور –عرضة للغزو، ولم تسلم من هجوم الخصوم، سواء من أمراء بني جلاب لجمع الضرائب، أو من القبائل بتونس،[31] وهكذا بقيت مدينة الوادي بدون سور إلى زمن دخول القوات الفرنسية.

2)المنشآت الاقتصادية:

كانت محدودة وتتمثل في مجالين، أحدهما داخل النسيج العمراني وهو السوق، والثاني خارجه وهي الغيطان مصدر قوت السكان:

أ) السوق الرئيسية بالمدينة:

بدأ استقرار قبيلة طرود العربية في غرب مدينة تكسبت القديمة في حدود 800هـ/ 1398م، وأرادوا بناء قرية لهم، فعارضتهم زناته، ولكن طرود أصرت، وفي غفلة من خصومها، أُحرق الجبس في موقع سندروس، وجلبوا الحجارة من الفولية، وبنوا – في بادئ الأمر – لزعمائهم بيوتا صغيرة في المكان المعروف باسم (البلد) في حافة السوق الغربية،[32] وأتموا في ليلتين نحو 16 بيتا، وفي اليوم الموالي اكتشفت زناتة الأمر ورضيت بالأمر الواقع على مضض، ومن يومها بدأ الصراع الذي أفضى إلى انسحاب زناته وخروجها إلى الأقاليم القريبة في حدود سنة 818هـ/1416م. [33]

وازدادت بيوت لعشاش وتوسعت نحو الشمال والغرب، بينما بقيت المنطقة الجنوبية والشرقية فضاء واسعا، استغل لمتطلباتهم الآنية، فلما اشتدت حاجتهم للمقبرة، دفنوا في اقرب نقطة لهم في الجنوب، وإلى جانبها كانت جمالهم تبرك، ويستقبلوا القوافل التي تجلب المواد الغذائية الضرورية، وهي مصدر لباسهم، من المناطق القريبة، وهو ما أشار إليه العدواني بقوله : " **الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف**"،[34] وهكذا صار المكان مبارك للإبل، وملتقى للقوافل، ومحط رحال للتجار، كما استقطب البدو من الجهات القريبة، وأضحى سوقا للمدينة الناشئة في حدود 1400 م، 801 هـ. وكانت عميرة أولاد أحمد تسكن في جنوب السوق، وبدأت مساكنهم في التوسع، وتحولت إلى شبه حاجز للسوق في هذا الطرف الخلفي.

والجدير بالذكر أن السوق في العهد العثماني، كان فيه جوانب تعبر عن التخصص، تنسب إلى السلعة التي تباع في ذلك المكان، وقد تتحول إلى اسم للشارع أو الرحبة. [35]

وفي وادي سوف، اقتضت الحاجة إلى بناء مخازن للحبوب، وبها يوضع الصوف والتمر وغيره ريثما تباع، وتحولت إلى حناويت صغيرة، وأسس المسجد الجامع في وسط السوق.

ب) إنجاز بساتين النخيل (الغيطان):

تغطي الرمال العميقة وجه الأرض في وادي سوف، ويوجد الماء على عشرات الأمتار، ويستحيل زراعة النخيل فوق سطح الأرض، لأن عملية السقي شاقة فضلا عن الرمال التي تهدد المزروعات بالدفن، ولذا فكر الفرد في حفر الأرض لتكون النخلة قريبة من الماء ويكفيه ذلك مؤونة سقيها باستمرار لأن عروقها تشرب مباشرة من الأعماق. وبهذا تتميز منطقة وادي سوف عن بقية الواحات الصحراوية، بزراعة النخيل، داخل أحواض عميقة، هي حقول الزراعة الأساسية، وتمثل ظاهرة فريدة من نوعها عالمياً، وعلى الإطلاق، ويلاقي الفلاح محنة في رعايتها وصيانة مزروعاتها من التلف، وتكلفه العمل الفعال خلال حياته الأساسية؛ وتلك الأحواض ذات امتدادات واسعة تبلغ مئات الأمتار طولا وعرضا، وتصل أعماقها إلى 16مترا، ولا يتمكن الفلاح في وادي سوف من حفرها إلا بمزيد من الصبر واستخدام الذكاء والفطنة، وتسمى تلك الحقول الزراعية بأسماء محلية، أهمها:

– **الغوط:** وتجمع عند السكان بلفظ غيطان أو غواطين، وتطلق عادة على البساتين في منطقة الجر الرملي ضمن نطاق العرق أو منطقة الرمال الدقيقة.

– **الهود:** ويجمع بلفظ (أهواد) ، ويكون في منطقة الصحن الرملية، ضمن نطاق الأرض الرملية الحصوية أو وهي الأكثر صلابة وتشبه الحماده في بعض ملامحها. (36)

وحينئذ تطورت زراعة النخيل بشكل ملفت للنظر في القرن16م، بداية من غوط سيدي مستور بمدينة الوادي، (37) عندما أمر الرجل الصالح سيدي مستور أبناءه بجلب فسائل النخيل من غدامس وبلاد الجريد، وشرع في غرسها بأول غوط قرب حي أولاد أحمد بالوادي، في حدود سنة 946هـ/1540م. وتطورت إلى أعداد كثيرة من الغيطان يصل عدد نخيل الغوط الفتي منها إلى 20 نخلة، ولا يتجاوز 300 نخلة في الغوط القديم. (38)

أما معاناة السكان، فتتمثل في رفع الرمال ومقاومتها، ويستغرق عمل الفلاح في وادي سوف جل النهار، ويبدأ بعد منتصف الليل ويستمر سحابة اليوم، وإلى وقت حلول الظلام، وخلاله لا يتوقف إلا في فترة قصيرة بعد الزوال، بينما في بقية يومه، فهو في عمل دؤوب، ونشاط متعدد، يتوزع بين رفع الرمال، ومقاومة الكثبان الزاحفة، ورعاية أشجار النخيل.

وعملية مقاومة الرمال تتطلب أعمالا ضخمة ويومية، ولا تنقطع في أي جزء من أيام السنة، وتستوعب جل وقت الفلاح، الذي يكافح الرمال ويصدها عن مزارعه، وأحواضه العملاقة، وفيها حياة النخيل، ويشرف عليها الفلاح المختص.

وكانت مدينة الوادي هي الرائدة والأولى التي خاضت تجربة غراسة النخيل، والتي أعطت للمنطقة صفتها الحقيقية، وصارت المساحات المحيطة بالمنشآت العمرانية، واحات من النخيل هي التي ثبتت البنيان، وطورت العمران، وشرع الناس في الاتجاه نحو المؤسسات الدينية، واعطاء الجانب الروحي حقه من العناية.

3–المنشآت الدينية:

كانت النواة الأولى هي مساكن أعيان البلد، ورجال الصلاح فيها، والتي شيدت بعيدا عن المدينة، وفي طرفيها الشرقي والغربي، وهي زاوية سيدي مستور، وزاوية سيدي عبد الله بن أحمد، ومثلت مأوى الفقير والمحتاج، وملاذ الضال عن الطريق، يجد فيهما النصيحة والرأي السديد من شيوخها، وكانت بديلا عن المساجد، ريثما أسست وتزايدت على مر الزمان.

أ) تأسيس المساجد: أولها هو المسجد العتيق، ويعرف بمسجد سيدي المسعود الشابي، أو مسجد السوق، لوقوعه في قلب سوق مدينة الوادي، وتم تأسيسه من طرف سيدي المسعود الشابي وعرش لعشاش، ورد في الوثيقة الأرشيفية تاريخ 1530م الموافق 937هـ.[39] والراجح أن مكان العبادة كان بسيطا، وربما كان عريشا أي زريبة، أو

خيمة، أو في الفضاء بالقرب من المباني، يتم الاجتماع فيه بعض الأشراف من أهل الصلاح الذين قدموا مبكرا إلى سوف. ولكن التأسيس الحقيقي للمسجد، وتشييده بالجبس، فقد تم بإشارة من الشيخ سيدي المسعود الشابي، في حدود 1597م، واشرف عليه شيخ قبيلة لعشاش، وبقي هذا المسجد يؤدي رسالته إلى سنة 1700م، عندما شيد المسجد الثاني الذي يبعد عنه نحو 150م فقط، وهو مسجد أولاد أخليفة بالعش، من نفس القبيلة، ولا توجد ضرورة إلا طبائع النفوس، والأنانية والغيرة.

وعندما كبر حي أولاد أحمد، فكروا في بناء مسجد مستقل عن المسجد العتيق، ويقع في الشمال الشرقي من الحي، ويدعى مسجد النخلة. وتاريخ التأسيس ربما يعود إلى 1790م. [40]ويوجد في شرقه الغيطان، وهذا جعلهم يستثمرون بالقرب من منازلهم، وهي طبيعة تأصلت لمدة معتبرة، مما جعل السوق يضيق تدريجيا. والظاهر أن المنافسة كانت قوية بين الأطراف، وأسس مسجد ثالث خارج السور، في حي جديد هو المصاعبة جنوب حي لعشاش، وفي الشمال الغربي من المدينة وفي أقصاها وهو مسجد سيدي عبد الرزاق، أو مسجد الظهارة سنة 1750م. كما أسس اتباع الطريقة القادرية مسجد سيدي عبد القادر الجيلاني سنة 1810م. [41]

ب–تأسيس الزوايا: كانت الزوايا في وادي سوف زوايا الصالحين مثل سيدي عون الذي أسس قريته في شمال المنطقة ومعها زاويته في أواخر القر الثامن عشر. [42] بينما بدأ تأسيس الزوايا التابعة للطرق الصوفية بوادي سوف في أواخر العهد العثماني، وبرزت بمدينة الوادي في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، عندما أسس سيدي سالم زاويته في الشمالي الشرقي من المدينة، وفي حافة السوق، وقرب الغيطان، وكانت محاذية لمسكنه، وهي عبارة عن كوخ صغير أو (زريبة) من الجريد، في حدود 1236هت/1820م، وتطورت البناء، وشيد مسجدها في سنة 1830م،[43] وقامت بدور ريادي في تحفيظ القرآن الكريم، الذي تولاه الشيخ العربي بالغنبازي. [44]وصارت الزاوية جسرا للتواصل مع

البلاد التونسية، وبلاد الزاب، واستقبلت العلماء، كما قامت بلم شمل السكان، وكان لها دورها الاجتماعي الفعال.

خاتمة:

لقد ارتبط العمران البشري في منطقة وادي سوف، بالعلاقات بين العنصر الوافد من البلاد التونسية، والنازح من الجوار في منطقتي الزيبان ووادي ريغ. وحدث التحول في المجتمع في أواخر العهد الحفصي، والتأثير الشابي، والحضور العثماني في الجنوب ولو اسميا، وكان التدافع كبيرا في العلاقات البينية، والذي جعل السكان يعيشون حالة من التحرر، الذي دفعهم إلى طلب الاستقرار الآمن. وما ينبغي التنبيه إلية في آخر هذه الدراسة:

–إن وادي سوف كانت في حالة من الركود، في ظل الوجود الزناتي الإباضي والذي دام قرونا، واصطدم السكان باقتحام القبائل العربية، والتي فرضت نفسها بالقوة، وأصرت على البقاء، مما دفع العناصر الزناتية إلى الانسحاب نهائيا. ويومئذ حدث التطور الديموغرافي، واشتدت الهجرة وخصوصا القبائل الهلالية السليمية، ولاسيما قبيلتي عدوان وطرود، ممن طبع المنطقة بعاداته وتقاليده الجديدة على تراب وادي سوف.

–تطور العمران بالتغيرات الطبيعية، وما يحيط بالبيئة، والتي تركزت في النهر المائي الذي عرف باسم "وادي أسوف" وما جاوره من مراعي متناثرة في ضفافه، وكانت تلك البيئة الطبيعية كافية وتفي بالغرض لمن كان مختفيا، يرجو الأمن والسلامة، وهذا الوضع نقصد به قبيلة زناتة الإباضية. ولكن النهر الرقراق، جفت مياهه، وازدادت الحاجة إلى مصدر من الماء والغذاء، ورأى العنصر العربي، ضرورة البحث عن بعد جديد يثبت السكان، ويرسخ العمران. وبعد اجتهاد متواصل، تم اكتشاف غراسة النخيل في النصف الأول من القرن السادس عشر، وحينها فتح باب الهجرة على مصراعيه، وتوافدت القبائل وساهمت في تطور المجتمع وتنميته.

–لقد تم تحديد المدينة التاريخية لوادي سوف، وتحول اسمها من "تكسبت الزناتية" إلى مدينة الوادي، وشيدت مساكنها قرب اطلال المدينة القديمة، وساهمت في بنائها قبيلة طرود، وبطونها من فرقتي لعشاش وأولاد احمد، وأقاموا صرح بيوتهم المتواضعة من الجبس والحجارة، وأغلبها التي جلبت من أطراف الإقليم، أو التي استخرجت من باطن الأرض، واكتشفت عند حفر بساتين النخيل. ولما كانت المنطقة مستهدفة من السابلة وهم اللصوص وقطاع الطرق من حولها، عزم السكان على بناء سور سنة 1635م، والذي ساهم في صد هجمات السابلة، والقبائل التي تهاجم منطلقة من الجنوب التونسي، ويضطر السكان إلى ملاحقتهم وردهم على أعقابهم.

–لقد تحولت مدينة الوادي إلى قاعدة مركزية لوادي سوف، وصارت تهفو إليها النفوس في ذلك المحيط الصحراوي الخلاب ببساتينه اليانعة، وحركته التجارية الرابحة، وسارع أعيان المنطقة إلى إنشاء مؤسسات اقتصادية، لأنها ركيزة الاستقرار، وفي مقدمتها السوق المركزي بالمدينة والذي شهد نشاطا تجاريا، وتم ربط علاقات مع بلدان الجوار، وصارت القوافل تجوب الصحراء تحمل البضائع، وزادها انتاج النخيل عنصرا هاما، وتشجع السكان على انجاز المزيد من الغيطان، وتوسعت المدينة في أطرافها، ونشأت القرى المتناثرة بالقرب منها، والتي خففت الوطء على المركز الرئيسي.

–عرف المجتمع الجديد، تتابعا في إنشاء المؤسسات، وأعطى العناية للجانب الروحي، والذي احتضنته الزوايا في بيوت الأعيان ورجال الصلاح الذين سكنوا في أطراف المدينة، وخارج سورها. ولكن أهمية المؤسسة الدينية الداخلية، جعلتهم يسارعون إلى بناء المسجد، والذي كان بسيطا من جريد النخيل وحطب الصحراء في بادئ الأمر، ولكن الاحتكاك مع البلاد التونسية، وشيوخ الطريقة الشابية، الذين اقبلوا يبثون الدعوة، وكان رائدهم الشيخ سيدي المسعود الشابي، الذي شجعهم على بناء مسجد متكامل، وشيد في وسط

السوق، وحمل اسمه إلى يومنا هذا. وتشجع السكان إلى تأسيس مساجد جديدة في نواحي المدينة بعد توسعها وتطورها وامتدادها خارج السور.

–أما الزوايا التابعة للطرق الصوفية، فتم تشييدها في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، ومؤسسها هو سيدي سالم العايب، وكانت عريشا من الجريد، وتطور بناؤها في المستقبل، واهتمت بالتعليم القرآني، الذي كان ضرورة ملحة، وبذلك بثت الوعي، واستقبلت العلماء من الزاب وبلاد الجريد، وصار لها دورها الاجتماعي الفعال.

وهكذا نشأت مدينة الوادي في ظل التحول الاجتماعي والسياسي خلال العهد العثماني، بجهود أفرادها، ودون دخل للسلطات العثمانية، والتي اعتبرت المنطقة تابعة لها، ولكنها اقتصرت على جمع الضرائب فقط، ولم يكن لها حضور سياسي آخر، ولا تأثير في الجانب الثقافي والحضاري. فالمنطقة بعناصرها الوافدة تفاعلت مع واقعها، وصارعت الطبيعة، وصنعت عادات وتقاليد جديدة، تميزت بها عن باقي المناطق، وتمثلت في مجتمع وادي سوف العريق.

الهوامش والاحالات:

1 – ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . أو (تاريخ ابن خلدون)**، دار البيان (ب ت) ، ج7، ص 02.

2 – محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 21–22.

3 – إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف** ، تعليق الجيلاني العوامر. الدار التونسية للنشر. تونس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1977، ص ص 105– 106 .

4 – انظر: أبو العباس الدرجيني، **كتاب طبقات المشايخ بالمغرب**، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث بقسنطينة، الجزائر،1974، ص ص 481–482. الشماخي، **كتاب السير**، دراسة وتحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2009، ج2، ص 720. بابا عمي محمد بن موسى وآخرون، **معجم أعلام الإباضية**، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت،1999 ، ج2، ص ص 272، 254.

5 – انظر: البكري ، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب العربي، القاهرة، (ب ت)، ص ص 16–66–69. محمد عيسى الحريري، **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها**

وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160هـ – 296هـ ، دار القلم، ط2، الكويت، 1987، ، ص ص 15-16.

6 – انظر: البكري ، المرجع السابق، ص ص 16-66-69. محمد عيسى الحريري المرجع السابق ،ص ص 15-16.

7 – انظر: البكري ، المرجع السابق، ص ص 16-66-69. محمد عيسى الحريري المرجع السابق ،ص ص 15-16. إبراهيم بن عامر، الصروف في تاريخ سوف، (مخ)، ج1، ص 55.

8 – **عدوان:** اسم أطلق على عدد من القبائل والعشائر المتواجدة ما بين الحجاز ونجد وعسير، والعراق وحمص، والذين دخلوا منهم إلى وادي سوف، هم بنو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، من العرب العدنانية، كانت منازلهم الأولى في الطائف من بلاد نجد، وغلبتهم عليها ثقيف، فخرجوا نحو تهامة اليمنية، ثم انتقلوا إلى إفريقية في هجرات متواصلة إلى القرن الثامن، وهم يسكنون تارة إلى جوار بني سليم، وفي أحيان أخرى مع بني هلال. أنظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 59. عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 1997، ج2. ص 762.

9 – انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 62.

10 – انظر: حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين"** ، مكتبة الخانجي، ط1، مصر، 1980، ص 319.

11 –انظر: حسونة عبد العزيز،" عمارة القرى المبكرة في وادي سوف" **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد5، العدد2، ديسمبر 2021، ص 407.

12 – **طرود:** تنتسب قبيلة طرود إلى طرود بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانت مساكنهم الأولى في شبه الجزيرة العربية، في فضاء واسع بإقليم الحجاز يمتد بين ثقيف شمالا، والجحادلة غربا، ومهنتهم تربية المواشي والجمال، وانتقلوا إلى بلاد المغرب الإسلامي، وجاوروا بني عمومتهم من قبيلة عدوان بوادي سوف الشمالية، واستوطنوا مؤقتا بخيامهم في حدود 690هـ (1292م)، ثم استقروا في وقت لاحق في مدينة الوادي، التي صارت موطنهم النهائي. أنظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 147، 149. ص 270. سمير عبد الرزاق القطب، **أنساب العرب**، منشورات دار الحياة ، ط1، بيروت،1968، ص ص 65، 66.

13 – أغلب تلك الأماكن لم تكن موجودة، وذكرناها هنا بالاسم للدلالة على المكان وليس المقصود وجود عمران بها، بل كانت صحراء قاحلة في أغلبها.

14 – اختلف في زمن الشروع في زراعة النخيل في سوف، فهناك الرأي الذي يرجعها إلى زمن سيدي مستور الجد، والذي تزامن مع وجود زناته، ولكن بقي بشكل محدود؛ ولكن الأرجح هو بعد خروج زناته، ومجيء طرود، ومشاركتهم لأبناء سيدي مستور في الزراعة، ولاسيما حفيده مستور بن الهادي. أنظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص ص 183-184.

15 – **الغوط**: وجمعه غيطان، هو مزرعة النخيل الغائرة في الرمال المتراكمة، في حوض شاسع، ويوجد في الأراضي الرملية العميقة.

16 – **الجر**: هو مجموعة من الغيطان المتناثرة في رقعة جغرافية متقاربة، وتحمل كل واحدة اسما مميزا.

17 – انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 195–196.

18 – **الهود**: وجمعه أهواد، هو مزرعة النخيل الغائرة في الأرض الحصوية، تشبه الغوط، وتختلف عنه بسهولة الغراسة فيها.

19 – André Voisin, **Monographie d'une région Saharienne**, Paris,1985 , (Manuscrit), p111.

C. Cauvet : " Notes sur le Souf et les Souafa ", **(B.S.G),** d'Alger, 1934 , p 71.

20 – Isabelle Eberhardt, **Dans l'ombre Chaude de l'Islam**, Victor Barrucand , Paris: Imprimerie p. et A Diary, 1926, p258 .

André Voisin , Op- Cit, p163.

21 – **الزرايب**: مفردها زريبة، وهي عريش أو كوخ من جريد النخل، وبعض حطب الصحراء، يستعمل شكلا إضافيا للإقامة المؤقتة، أو لدى الفقراء الذين يعجزون عن بناء بيت بالجبس، ويوجد غالبا في اطراف البيوت، ويستغل في أحيان أخرى اسطبلا للحيوان.

22 – إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 84.

23 - Ahmed Nadjah , Op- Cit, p 92. CL.. Bataillon : **Le Souf Etude de Géographie Humaine** Université d'Alger, Institut de Recherches Sahariennes ,M:02, p 97.

Isabelle Eberhardt, **Mes Journaliers,** par René Luis Doyon: ed d'Aujourd'hui. Paris. 1985. , pp69- 74.

24 – علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن الثالث عشر(هـ) التاسع عشر(م)**، رسالة ماجستير، تحت اشراف الدكتور عمر بن خروف، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2002/2001، ص ص 121–123.

25 – إبراهيم العوامر: المرجع السابق، ص ص 190–191.

26 – الراجح والصحيح هو ابنه علي بن عبد الصمد الشابي الذي توفي عام 1637م. أنظر: علي الشابي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية ،**المجلة التاريخية المغربية**، يناير 1979، ص 80.

27 – إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 189.

28 – نفسه، ص 190.

29 – وآثاره بقيت إلى حدود سنة 1949.انظر: André Voisin, Op-Cit, p 89.

30 – إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 190–191.

31 – محمد العدواني، **تاريخ العدواني**، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص 147.

32 – موضع البيوت في الشارع القريب من مقر قيادة لعشاش، والواقع حاليا في الشارع الشرقي من رحبة ليهود بالسوق العام لمدينة الوادي. أنظر: إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، المرجع السابق، ص 169.

33 – نفسه، ص ص 169–170.

34 – انظر: محمد العدواني ، المصدر السابق ، ص 147.

35 – رضوان شافو، عمر لمقدم، " نظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني" ، **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد1، العدد1، جوان 2017، ص 73.

36 – Voir: G.H. Bousquet :" Du Droit Coutumier et de ses Rapports avec la Vie Economique et la Technique Agricole dans le Souf" , **Travaux de L'Institut de Recherches Saharienne**(**T.I.R.S**) T12, Université d'Alger; 1954,p:72.

37 – إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص ص 183–184.

38 – .H. Bousquet ,Op-Cit ,p 72.

39 – A.O.M. 17H41. Notices de Mosquée de Sdi El-Messaoud(El-Oued)-1913 .

40 – مصطفى سالمي، **الدر المصفى**، جمع وتصنيف وتحقيق علي غنابزية، 1999، مخطوط، ص 16 . لقاء مع الشيخ محمد الطاهر التليلي ببيته بقمار الخميس 1996/10/5.

41 – تقاييد أحمد خراز، نقلتها منها يوم 1997/12/17م.

42 – سفيان صغيري، " التطور الإداري لبلدة سيدي عون بوادي سوف (1854–1962) على ضوء الرواية الشفوية" ، **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد6، العدد2، اكتوبر 2022، ص 393.

43 – تقاييد أحمد خراز، نقلتها منها يوم 1997/12/17م.

44 – علي غنابزية، **الشيخ سيدي مصباح بن سيدي سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف**، مطبعة مزوار، ط1، الوادي – الجزائر، 2009، ص 07.